

تفسير ابن كثير

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ^ط قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) (لا) هاهنا

زائدة . وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد ، كقول الشاعر : ما إن رأيت ولا سمعت

بمثلها دخل " إن " وهي للنفي ، على " ما " النافية ; لتأكيد النفي ، قالوا : وكذلك هاهنا : (

ما منعك ألا تسجد) مع تقدم قوله : (لم يكن من الساجدين) . حكاهما ابن جرير

وردهما ، واختار أن " منعك " تضمن معنى فعل آخر تقديره : ما أحوجك وألزمك واضطرك

ألا تسجد إذ أمرتك ، ونحو ذلك . وهذا القول قوي حسن ، والله أعلم . وقول إبليس لعنه

الله : (أنا خير منه) من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا

يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود

له ؟ ثم بين أنه خير منه ، بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقت منه ، وهو الطين ،

فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم

بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص قوله تعالى : (فقعوا له

ساجدين) فشذ من بين الملائكة بترك السجود; فلهذا أبلس من الرحمة ، أي : أيس من الرحمة ، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح . والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة; ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة . وفي صحيح مسلم ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " هكذا رواه مسلم . وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا إسماعيل ، عن عبد الله بن مسعود ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " قلت لنعيم بن حماد : أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال : باليمن وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح : " وخلقت الحور العين من الزعفران " وقال

ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن ابن شوذب ، عن
مطر الوراق ، عن الحسن في قوله : (خلقتني من نار وخلقته من طين) قال : قاس إبليس
، وهو أول من قاس . إسناده صحيح . وقال : حدثني عمرو بن مالك ، حدثني يحيى بن
سليم الطائفي عن هشام ، عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس
والقمر إلا بالمقاييس إسناده صحيح أيضا .